الفصل الثالث

في اطباء العرب

نبذة اولى

في منشإ الطب عند العرب

كانت العرب قبائل متفرقة منتشرة في شبه الجزيرة العربية تعتمد في معاشها على الانعام فتضرب في اكناف البادية طلباً لمواقع الغيث وانتجاعاً للكلإ . وكانت كل قبيلة كثر عديدها او قلَّ مستقلة بأمرها يجري افرادها على الفطرة السليمة في معاملة بعضهم البعض وينقادون لمشائخهم كما ينقاد الابناء للآباء . وكان دأبهم الغزو يتفاخرون به ويثأرون بعضهم بعضاً فلم تنفكَّ العداوة بينهم حتى جاء الاسلام فجمع شتيتهم وألف بين قلوبهم فصاروا أمة اندفعت كالسيل المنهمر على مدن سوريا فاجتاحتها وتملكتها وتقدمت الى بلاد فارس من جهة اسيا والى مصر من جهة افريقيا ثم دخلت أوربا وتملكت اسبانيا ولم تصدَّها جبال البرانس [1] عن التقدم حتى

(1) Pyrénées هكذا كتبها المورخون من العرب
لا كما يكتبها المترجمون الآن راجع نفح الطيب

وقف في طريقها كارل مارتل في سهل بواتياي [٢] من فرنسا كما وقف سور الصين في سبيلها من جهة آسيا وقد استولت في الزمن القصير على ممالك القياصرة والاكاسرة ودخلت في حوزتها جميع المدن القديمة والامصار العظيمة الواقعة في اطراف المعمور من شواطيء بحر الظلمات [٣] الى شواطيء الاوقيانوس الهندي ومن بحر الروم الى مجاهل افريقيا . وكلُّ مملكةٍ افتتحتها رسخ قدمها فيها ودان اهلوها لها واعتنقوا دينها الاَّ الذين استأمنوا ودفعوا الجزية عن يدٍ فانتشرت اللغة العربية الى اطراف المعمور وغلبت سائر اللغات في مواطنها الاصلية فجرت ذيل العفآء على السريانية والقبطية واليونانية والعبرانية والفارسية وغيرها [٤] . وكان النصارى في تلك الايام دائبين على المشاحات في العقائد الدينية متشاغلين بالمماحكات في المنازع السياسية متهالكين في تقويض بنيان ممالكهم بالدسائس الداخلية والفتن الاهلية وقد اتخذ ملوك الروم قاعدة سياستهم ,, فرّقْ فتملكْ ,, فساد الظلم ووقع الحيف واستبدَّ القوي بالضعيف وتشتّتَ الجمع وانقسموا فرقًا تمكنت منها اسباب العداوة

(1) Charles Martel (2) Poitier
(3) Atlantique (4) V. l'histoire générale des Arabes, par Sédillot

وكلُّ فرقةٍ قويت انتقمت من الاخرى ونكلت بها تنكيلاً ولذلك اضطرَّ كلُّ من جرى في عروقه دم الشرف والحرية الى ان يغادر موطنهُ ويهاجر الى حيث يرى لهُ مأمناً ومرتقىً فكان العلماء والحكماء اولَ من اتخذ هذا السبيل وهم حياة الامة فقصدوا بلاد الاكاسرة وغيرها من الاطراف الشاسعة هرباً من ظلم مضطهديهم وهرب كثير من علماء مدينة الاسكندرية الى اللاذقية وغيرها من مدن سوريا

وكان النساطرة ممن ذاقوا البلاء من الروم اذىً وشدَّةً فلجأوا الى ظلّ الاكاسرة في العجم حيث اسسوا في مدينة الرها مدرسةً ثم أنشئوا في مدينة جنديسابور مدرسة ومارستاناً واشتغل اساتذتها بترجمة كتب اليونان الى السريانية فتمهد للعرب بذلك سبيل طلب العلم

ولم تحفل الدولة الاموية في الشرق بعلم الطب والحكمة لتشاغلها بالفتوحات وتوطيد قواعد الملك . واول اطباء العرب الحارث بن كلدة اخذ الطب عن اساتذة مدرسة جنديسابور وطبّ بحضرة النبي وتوفي في بداية خلافة عثمان . وذكر الشيرازيُّ الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي البصري

1 Laboulbène; la médécine chez les Arabes; Sédillot.; histoire générale des Arabes

توفي سنة تسع وستين من الهجرة . وذكر بعضهم عبد الملك بن ابجر الكناني وكان طبيباً عربياً نصرانياً من حكماء مدرسة الاسكندرية اسلم في ايام عبد العزيز بن مروان حاكم مصر سنة ٧٠ من الهجرة (٦٨٩ م) ويوحنا أويحي المعروف عند السريان بالنحوي (غراماطيقوس) كان يعقوبياً من حكماء الاسكندرية . وفد على عمرو بن العاص وقد عرف مكانهُ من العلم فاكرمهُ وقرَّبهُ . وكأنَّ مجد الدولة العربية في احياء موات العلم ونشر صناعة الطب بقي مرتهناً الى ان تبوَّأ بنوا العباس عرش الخلافة وجعلوا بغداد عاصمة المملكة الاسلامية . أو كأنَّ الدولة العباسية آلت لتنهضنَّ بهذه الامة الى ذروة المجد فلم تجد مرقاةً لها افضل من العلم . فمنذ اختطَّ الخليفة المنصور مدينة بغداد سنة ٧٦٢ م ترك جرجس بن جبريل من ابناء بختيشوع مدرسة جنديسابور واقام في بغداد وكان طبيب الخليفة وتوفي في ايامهِ وكان لهُ خبرة بتصوير العلل والعلاج فقط وهو الذي مهد الطريق لذويهِ بالحظوى لدى الخلفاء ورجال الدولة

وبنى هرون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات واباح الانتفاع بها للعموم . وكان طبيبهُ جبريل بن عبدالله بن بختيشوع وكان مكرماً لديه حظياً عندهُ وفي ايامه تُرجمت كتب الحكمة

والطب من السريانية واليونانية والهندية الى العربية . وعهد اليه الخليفة بفحص الاطباء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن كفواً لمزاولة هذه الصناعة . صنف الكناش الصغير للصاحب بن عباد فاجازهُ بالف دينار . وانشأ المأمون ندوةً علمية جمع اليها العلماء من كل صوبٍ وحدَب وبذل من الاموال ما لا يقدَّر لمشترى الكتب وترجمتها الى اللغة العربية فكانت بغداد حينئذٍ عروس الدنيا ودار العلوم وعرصة الادب قيل ان العلماء والمدرسين فيها واعضاء ندوتها العلمية بلغوا لذلك العهد ستة آلاف عدًّا . فتأمل

ومن مشاهير النساطرة الذين كانت لهم يدٌ بالترجمة الى العربية ابناء ماسويه منهم يوحنا صاحب النظم الحاذق والملاحظ الخارق والبراعة التامة برع في عدة علوم وكان من بطانة هرون الرشيد . اشتغل بتدريس علم الطب في مدرسة بغداد والف كتباً كثيرة وتوفي سنة ٢٤٣ هـ . وكان تلميذهُ حنين بن اسحق المولود في الحيرة من مشاهير المترجمين في القرن التاسع ثم صار طبيب المتوكل ومما يؤثر عنهُ ان المتوكل اراد امتحانهُ ليعرف مكانهُ من صدق الخدمة فخلع عليهِ واقطعهُ بما يساوي خمسين الف درهم ثم طلب منهُ ان يصف لهُ دواء يقتل به عدوًّا لهُ لا

يحبُّ ذكر اسمهِ فاجابهُ حنين يعفوني امير المؤمنين فانني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولم يخطر ببالي انهُ يطلب مني خلافها ولما لم يظفر منهُ بطائل اخافهُ وتهددهُ ثم ارسلهُ الى السجن في بعض القلاع وتركهُ مدةً وبعد ذلك احضرهُ واعاد عليهِ الطلب فاصرَّ على امتناعه . فأمر الخليفة باحضار سيف ونطع وقال لقتلك ان لم تفعل . فقال حنين ان لي ربًّا يأخذ بحقي غدًا في الموقف الرهيب . فتبسم المتوكل وقال لهُ طب نفساً فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك . فقبَّل حنين الارض وشكر . وبعد ان هدأ روعهُ سألهُ الخليفة ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الامر منا في الحالين . فقال شيئان ,, الدين والصناعة ،، اما الدين فانهُ يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى اعدائنا واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهد موكد بايمان مغلظة ألاَّ يعطوا احدًا دواء قتالاً او مضرًّا فقال الخليفة انهما شرعان جميلان وانعم عليه فحمل انعامهُ وخرج وهو احسن الناس حالاً وانعمهم بالاً . واشتغل حنين بالترجمة فترجم كتب بقراط وجالينوس

(١) خطاب للمؤلف القاه في ختام سنه ١٨٨٩ للمدرسة الكلية السوريه ــ الوافي للمرحوم امين الشميل ــ

Sédillot; histoire générale des arabes; tome II, page 75

وافلاطون وبطليموس وبولس الايجيني وكان ابناهُ اسحق وداود مترجمين ايضاً . وذكر الشيرازي اسحق ولم يذكر حنيناً . قال نقلاً عن ابن خلكان " اسحق بن حنين العبادي الاسرائيلي الحميري اشتغل على ابن ماسويه وكان متقناً للطب والعربية واليونانية عرَّب كثيرًا من كتبها وكان كثير الاعتناء بكتب ارسطو وجالينوس توفي سنة ٣٦٨ هـ " . وامتاز ابن اخته حُبيش بضبط الترجمة والنقل والف كتاباً في الطب . وكثر مترجموا الكتب عند الخلفاء العباسيين وممن اشتهر منهم حجاج بن مطر ترجم المجسطى تأليف بطليموس في علم التنجيم ومقالات اقليدس في الرياضيات وبعض مصنفات ارسطو . وكثر الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم صالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وابناء الطيفوري وزين الطبري اليهودي وقسطا بن لوقا من بعلبك وابو زكريا يحيي بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة ولد سنة ١٩٢ هـ (سنة ٨٠٩ م) وثابت بن قرة الصابئ من حران اشتغل مع قسطا بن لوقا بترجمة كتب جالينوس وغيرها من كتب الطب والرياضيات والتنجيم وفيه يقول السريّ

الرؤآء احد شعرآء سيف الدولة بن حمدان

هل للعليل سوى ابن قرّة شافِ بعد الاله وهل لهُ من كافِ
احيى لنا رسم الفلاسفة الذي اودى واوضح رسمَ طبٍّ عافِ
فكأنهُ عيسى بنُ مريمَ ناطقاً يهبُ الحياةَ بايسر الالطافِ
مثلتُ لهُ قارورتي فرأى بها ما اكتنَّ بين جوانحي وشغافي
يبدو لهُ الدآء الخفيُّ كما بدا للعين رَضراضُ الغدير الصافي

ومنهم يوحنا بن سرابيون المعروف بيوحنا الدمشقي بالنسبة الى دمشق وهو مؤلف الكناش كتبهُ بالسريانية وترجم الى العربية ثم ترجم الى اللاتينية ولهُ تصانيف كثيرة اكثر الرازي عنهُ النقل . ومن مشاهيرهم في ذلك العصر ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي كان من بطانة المأمون ثم اتصل بالمعتصم وهو من ابنآء الملوك وكان فيلسوفاً بارعاً في علوم اليونان والعجم والهند . الف كتباً كثيرة ونقل عن فلاسفة اليونان ولاسيما عن ارسطو [٣]

(١) يتيمه الدهر للثعالبي

(٢) ذكر صاحب عيون الانباء في طبقات الاطباء وغيره اسماء كثيرين من نقلة العلوم والمترجمين الى اللغه العربيه من يونان ويعاقبه وسريان ونساطرة ويهود وهنود فاقتصرنا على ذكر بعضهم ممن اشار اليهم علماء الافرنج اثباتا لما نحن في صدده

فمما تقدم يتضح ان العلوم ولا سيما علم الطب لاح نورها في مدرسة جنديسابور من بلاد العجم ثم اشرق في بغداد بعد ان خبا في بلاد اليونان وانطفأ في مدينة الاسكندرية. وان الصلة بين اللغة اليونانية واللغة العربية كانت اللغة السريانية في بدء الامر . وان نقلة علوم الحكمة والطب كانوا من النساطرة واليعاقبة غالباً واليهود والصابئة احياناً . وان الكتب التي وضعت باللغة العربية حتى القرن التاسع لم تكن الا مترجمةً عن اليونانية غالباً . وان الفضل في احياء هذه هذهِ العلوم ونشرها يرجع للخلفاء العباسيين ولا سيما الرشيد والمأمون اللذين ظهرت عنايتهما بترجمة الكتب وجمع العلماء وانشاء دور العلم وبيوت المرضى في بغداد كما فعل البطالسة في الاسكندرية من قبل

نبذة ثانية

في حكماء العرب في الشرق

وبعد القرن التاسع ظهرت فلاسفة العرب الذين ألفوا في الطب الكتب النفيسة وهي الكتب التي اتخذت دستوراً جرى عليهِ العلماء عموماً في مزاولة صناعة الطب مدة اثني عشر قرناً . ولا يسعنا المقام ان نذكرهم كلهم فنجتزيء بذكر تراجم الذين امتازوا

بينهم ولا سيما الذين اخذ عنهم الاروبيون وترجموا مصنفاتهم الى لغاتهم . فمنهم الامام ابوبكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العصر [1] ولدَ ونشأَ في الريّ وبرع في علم الادب والفنون منذ كان صغيراً وكان كثير الولع بالموسيقى والنظم ثم جاء بغداد وزار بيمارستانها فرغب في الفلسفة والطب فبرع فيهما حتى بلغ الغاية وصار اشهر اساتذة مدرسة بغداد . وكان زكياً حافظاً باراً بالناس رؤوفاً بالمرضى كثير العناية بالفقراء صنف كتباً كثيرة منها كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً والحاوي في خمسة عشر مجلداً وقد حكى فيه عن عجائب في معالجته تدل على براعته وتُرجم هذا المصنف الى اللغات الاوروبية وطُبع على اثر اختراع آلة الطباعة في مدينة البندقية في ١٧ مجلداً . قال كوفياي " ان هذا الكتاب يشتمل على الدروس التي املاها الرازي على تلامذته في مدرسة بغداد وقد اضاف اليها بعضهم فصولاً بعد موته " وكان رئيس اطباء بيمارستان بغداد والري وجنديسابور معاً . وألّف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وألف كتباً كثيرة في التشريح ومنافع الاعضاء وغير ذلك . ومن مصنفاته المنصوري في عشرة مجلدات ذكر في آخره الصفات التي

(1) V. la Revue scientifique, tome XXXII de la collection P. 647

يجب على الطبيب ان يكون حاصلاً عليها والقوانين التي يجب عليه السلوك بموجبها ونندّد بالمخرقين بصناعة الطب كما فعل بقراط وجالينوس من قبلُ . وهذا الكتاب بلغ من الشهرة في اوروبا في القرون الوسطى ما لم يبلغهُ كتاب آخر حتى ان الملك لويس الحادي عشر امر بان لا يعتمد الا عليه في تدريس علم الطب في مدرسة باريس وسماهُ بالمنصوري لانهُ جعلهُ تقدمةً الى منصور بن نوح السامانى امير خراسان حفيد الخليفة المعتصم . ومن بديع مصنفاتهِ رسالة في وصف الجدري والحصبة عُني بطبعها في بيروت الاستاذ الطبيب الذكر العلامة كرنيليوس فانديك . قيل ان الرازي اصيب في شيخوخته بالماء الازرق فجاءهُ جراح ليقدح عينهُ فسألهُ كم هي طبقات العين ورطوباتها فلم يُحر جواباً فقال خيرٌ لي ان ابقى اعمى من ان يقدح عيني جاهل . وصرفهُ . توفي سنة ٩٣٢ م (٣١١ هـ)

ومن[٢] كلامهِ " الحكيم برأيهِ متلفٌ " ومنهُ " يجب على

---

(١) وقيل ان الملك لويس الحادى عشر طلب الكتاب المذكور من مدرسة باريس الكلية بضمانة باهظة لياخذ عنه نسخة

Edouard Forestiè; LaRevue scientifique, tome XXXIV de la collection – 1885, P.87

(٢) نقلا عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس

الطبيب ان يوهم العليل بالصحة وان كان غير واثق بها "ـ وقال " الاطباء الاحداث الذين لا تجربة لهم فقالون " ـ وقال "يجب على المريض ان يقتصر على طبيب يثق بهِ فخطأهُ في جنب صوابه يسيرٌ لان من استعمل اطباء كثيرين وقع في خطإ الجميع " ـ وقال "اذا استطاع الطبيب ان يعالج المرضى بالاغذية دون الادوية فقد وافقتهُ السعادة " ـ وقال " اذا كان الطبيب حاذقاً والصيدليُّ صادقاً والمريض موافقاً فما اقلَّ لبث العلة "

وجاء بعد الرازي عليُّ بن العباس المجوسي الاهوازيُّ المعروف بالملكي تلميذ ابي ماهر وكان بعد الرازي بنحو ٥٠ سنة وهو مثلهُ عجمي صنف كتاب كامل الصناعة لعضد الدولة بن بويه الديلمي في ٢٠ مجلداً تحدَّى بهِ جالينوس وكان اماماً بالعلم والعمل قال بعضهم علم القانون وعلاج الملكي لم يسبق اليهما وبعضهم يفضلهُ عن ابن سينا . تُرجم مصنفهُ الى اللاتينية وطُبع سنة ١٤٩٢ م . ومما يؤثر عنهُ قولهُ "يجب على الاطباء الاحداث ان يقترنوا على العمل في المارستان لانني استفدتُ كثيراً بما تحرينهُ من التجارب فيهِ " . ونبغ ابن سينا في القرن العاشر وكان من تلامذة مدرسة بغداد وهو ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا ويعرف بالشيخ الرئيس وُلد في بخارا

سنة ٣٧٠ هـ ـ ٩٨٠م . وتوفي بالاسهال في همذان سنة ٤٢٨هـ ـ ١٠٣٦ م كان فيلسوف الزمان . برع في الطب والفلسفة والطبيعيات والمنطق والرياضيات والفقه واتقن اقليدس والمجسطي وفاق في علم الطب اهل زمانه ثم اتصل بخدمة نوح بن منصور الساماني وسأله ان يمكنّهُ من الدخول الى خزانة كتبهِ فاذن لهُ فرأى فيها شيئاً من كتب الاوائل لم يكن في ايدي الناس فحصل منها على فوائد كثيرة وفي رواية انهُ احتال في حرق مكتبة بخارا ليتفرد بمصنفاتهِ وهذه الرواية لم تثبت . وتقلد الوزارة لشمس الدولة . ومؤلفاتهُ كثيرة في جميع العلوم والفنون منها كتاب الشفاء وكتاب اللواحق وكتاب الحاصل والمحصول نحو من ٢٠ مجلداً وكتاب البر الاتمّ مجلدان وكتاب الانصاف جمع فيه كتب ارسطو في ٢٠ مجلداً وكتاب لسان العرب في اللغة قال بعضهم لم يؤلف في اللغة مثلهُ وكتاب المبدإ والمعاد وكتاب الاشارات وكتاب التنبيهات وكتاب الحدود وكتاب عيون الحكمة والموجز في المنطق وكتاب تقاسيم العلوم والحكمة ولهُ المدخل الى علم الموسيقى ومقالة في الاجرام العلوية ومقالة في الرصد وكتاب تدبير النفس وشرح كتاب النفس لارسطو وكتاب المُلخَ في النحو ورسالة في

الزهد وفضيلته على انهُ لم يكن زاهدًا كما يعلم من تاريخ حياتهِ ويحكى ان صاحبًا لهُ لامهُ على اسرافهِ على نفسه فاجابهُ انني احب الدنيا قصيرة عريضة ولا احبُّها طويلة ضيقة . ولهُ كتاب تعبير الرؤيا ولهُ رسالة في الكيميآء ورسالة في القضآء والقدر ورسالة في مخارج الحروف ولهُ كتاب القولنج وكتاب الادوية القلبية ورسالة في خط الاستوآء ومقالة في حد الجسم وغير ذلك في الاصول والفروع وفي علم الحديث ولهُ نظمٌ رائق منهُ قولهُ

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان السقمَ اكثرُ ما تراهُ يكونُ من الطعامِ او الشرابِ

ولهُ في النفس قصيدة بديعة شرحها بعض العلمآء قال في مطلعها

هبطت اليكَ من المحلّ الارفعِ ورقآء ذات تعززٍ وتمنُّعِ

ولهُ الارجوزة المشهورة في علم الطب وعملهِ قال فيها الامام مروان بن زهر انها محيطة بجميع كليات الطب وانها افضل من كتب كثيرة وقد شرحها كثير من العلمآء منهم الفيلسوف ابن رشد والعلامة الشيرازي . واحسن كتاب ألفهُ القانون وهو مشهور بقي ستة قرون معولاً عليه في علم الطب وعملهِ حتى عند الاوربيين الذين ترجموهُ الى لغاتهم وكانوا يتعلمونهُ في مدارسهم وطبعوه

سنة ١٤٧٦ وذلك بعد اختراع آلة الطباعة بنحو ٣٠ سنة واذا عرفتَ ما تقدم لم تستغرب قولهم " كان الطب معدوماً فأوجدهُ بقراط وكان ميتاً فاحياهُ جالينوس وكان متفرقاً فجمعهُ الرازي وكان ناقصاً فكملهُ ابن سينا "

ومن فلاسفة العرب لذلك العهد الفارابي وهو محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان من فاراب مدينة من مدن الترك صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ عنهُ الرئيس ابن سينا . طاف البلاد وقال اني لاعرف اكثر من سبعين لساناً وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ابي صادق عبد الرحمن بن علي النيسابوري برع في العلوم الحكمية وكان من تلامذة الرئيس ابن سينا . توفي سنة ٤٥٩ هـ . ومنهم الامام الاستاذ موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي عرف بابن اللباد وكان جالينوس الزمان وبقراط الوقت برع في اللغة العربية والفلسفة واصول الطب وفروعه وكان كثير العناية بكتب ارسطو صنف ماية وثمانين مصنفاً وردَّ على ابن سينا ردًّا شنيعاً حيث صنف في علم الكيمياء توفي سنة ٦٢٦ هـ . ـ ١٢٣٠ م . ومنهم ابن نفيس علي ابن ابي الحزم القرشي شيخ الاطباء في عصره وامامهم برع في

الطب وكان يملي ويدرس ويصنف في المجلس الواحد وجميع مصنفاته من حفظه . صنف كتاب الشامل وبيّض منه نحو ١٠٠ مجلد وصنف المهذب في صناعة الكحل (امراض العيون) ولم يسبق الى مثله توفي سنة ١٢٨٧ . ومنهم ابو الفرج يعقوب بن اسحق القف من نصارى الكرك كان حكيماً رياضياً برع في الطب واشتهر بالجراحة وخدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق ومن مصنفاته كتاب الشافي في الطب وكتاب شرح كليات قانون ابن سينا في ٦ مجلدات وكتاب شرح فصول بقراط مجلدان وهو كافٍ للدلالة على براعته ودقة بحثه وسعة اطلاعه وصحة نقده ومن مصنفاته كتاب العمدة في صناعة الجراح ٢٠ مقالة ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجراح وله مؤلفات أُخرى توفي ١٢٨٤ ومنهم ابن ابي اصيبعة صاحب عيون الانباء في تاريخ الاطباء ولد في دمشق سنة ١٢٠٣ وتوفي فيها سنة ١٢٦٩ م . واشتهر في ذلك القرن عليّ بن عمر وكان كحالاً منشأه مصر وكانت امراض العيون فيها كثيرة كما هي الآن ومن مشاهير علماء اليهود الميموني وكان ميالاً الى الفلسفة اكثر من الطب جاء من اسبانيا الى مصر وتوفي سنة ١٢٠٤ م . والف كتبه باللغة العربية

وفي تلك القرون حُملت مصابيح الحكمة من مدينة بغداد الى سائر المدن الاسلامية فلم تخلُ مدينة من مدرسة للطب ومارستان لتطبيب المرضى ومكتبة او مكاتب تشتمل على الوف الالوف من الكتب الجليلة في جميع العلوم والفنون . ولو شئنا استقصاء ما ذكرهُ المؤرخون عن بناء المدارس وبيوت المرضى والمكاتب لطال بنا المجال فنقتصر على ذكر شيء من ذلك للدلالة على ما كان عليهِ ملوك الاسلام من العناية بالامة والنظر في مصالحها وسعادتها وما ادّى اليه الاهمال من ضياع هذهِ الكنوز النفيسة ليعتبر من ألقى السمع وهو شهيد . فقد ذكروا ان نور الدين بن الشهيد اسر بعض ملوك الافرنج وقصد قتلهُ ففدى نفسهُ بتسليم خمسة قلاع وخمسماية الف دينار انفقها نور الدين كلها على عمار مارستانهِ في دمشق . وحدث ان الملك المنصور لما توجه وهو امير الى غزاة الروم في ايام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ اصابهُ بدمشق قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فاعجب به ونذر ان اتاهُ الله الملك ان يبني مارستاناً فلما تسلطن بنى مارستانهُ الكبير المعروف بالمنصوري بخط بين القصرين من القاهرة افرد لكل طائفة من المرضى موضعاً

فيه فجعل اواوين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوها وافرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنسآء ومكانًا للمبرودين ينقسم الى قسمين قسم للرجال وقسم للنسآء وجعل المآء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكانًا لطبخ الطعام والاشربة والادوية ومكانًا لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات ... ومكانًا يجلس فيه رئيس الاطبآء لالقآء درس الطب . وجعلهُ سبيلاً لكل من يرد عليه من غني وفقير . اما المارستان العتيق فقد بناهُ صلاح الدين يوسف بن ايوب واستخدم لهُ اطبآء وطبائعيين وجراحين وخدامًا ووجد الناس به رفقًا واليه مستروحًا وبه نفعًا وكذلك بمصر امر بفتح مارستانها القديم . واول مارستان بني في مصر بعد الفتح انشأهُ احمد بن طولون وانفق على بنائهِ ستين الف دينار واذا كان كافور الاخشيدي بني مارستانًا في القاهرة فباي عين ينظر الآن امرآؤنا وكبرآؤنا مارستانات الافرنج تبنى في ديارهم ولايحزنون وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاحُ

(١) راجع الجزء الثاني من الخطط والآثار للمقريزي صفحة ٤٠٦

نبذة ثالثة

في الطب العربي في المغرب

ولم يكن الشرق وحدهُ مطلع شموس المعارف والحكمة ومجلى انوار فلاسفة العرب فقد كان للغرب من ذلك الحظ الاوفر على عهد الخلفآء الامويين وقد انشأ الحكم بن هشام في قرطبة ندوةً علميَّة كان العلمآء ينقاطرون اليها من جميع الامصار كما كانوا ينقاطرون الى الندوة العلمية التي انشأها المأمون في بغداد وارسل الوفود الى جميع الجهات لمشترى الكتب ونسخها فجمع مكتبة كانت في القرن العاشر تاجاً على مفرق الغرب وسعت ستمائة الف مجلد وكان برنامجها في ٤٤ مجلد ! وقال بعضهم [1] انها كانت تشتمل على ٢٨٤٠٠٠ وهو مقدار يرى المتأمل فيه عظمة الدولة العربية في الاندلس وشدة عنايتها برفع منار العلم اذ لم تكن الطباعة معروفةً وطريقة استحصال الكتب لم تكن سهلةً كما في هذه الايام . ومما امتازت به قرطبة ايضاً مدرستها الجامعة التي كان يأمُّها طلاب الحكمة من جميع الامصار وقد تعلم فيها بعض عظمآء الافرنج في زمن

(1) Laboulbène. V. la revue scientifique; tome XXXII

جاهليتهم ولما ذاقوا لذة العلم وتبينوا منافعه دفعوا الى الاقتداء بالعرب .وانشأ فيها محمد بن عليّ حديقة غناء لاجل درس علم النبات . ومما قيل في وصف قرطبة

باربعٍ فاقتِ الاقطارَ قرطبةٌ وهنّ قنطرةُ الوادي وجامعُها
هاتانِ ثنتانِ والزهراءُ ثالثةٌ والعلمُ افضلُ شيءٍ وهو رابعُها

ومما يدلُّ على رواج بضاعة العلم عند العرب في الاندلس كثرة المدارس الطبية فيها فقد أُنشيء في اشبيلية مدرسة كبرى نبغ فيها كثيرٌ من مشاهير الحكماء وكان في طُليطلة مدرسة أخرى للطب توهج فيها نور الحكمة وفي مدينة مرسية مدرسة ثالثة لا تقلُّ سناءً عن غيرها من تلك المدارس الزاهرة وقد امتاز الاندلسيون بالتأنق في الحضارة والمدنية كما امتاز علماؤهم بالتدقيق في المباحث الفلسفية واستنباط كثيرٍ من المبادئ التي بنيت عليها المكتشفات العلمية التي هي من مفاخر هذا العصر ولا ابالغ اذا قلت ان مبدأ مذهب دَرُوِن في التحويل والارتقاء مأخوذ عن العرب ولديَّ مصنف محمد بن احمد الورّاق المعروف بالكتبيّ في علم الطبائع فيما قاله في الكلام على طبائع القرد "هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركبٌ من انسان وبهيمة وهو من تدريج الطبيعة من البهيميّة الى الانسان

(كذا) وهو يحاكي الانسان بصورتهِ وافعاله . . . . " اه بحروفهِ ونحن نرى دَروِن يدعي بانَ جدَّهُ جراسيموس اول من قال بمبدإِ التحول في الحيوانات منكراً على لمَرَكَ الفرنسويّ فضل الاسبقية وانما الفضل للكتبيّ الذي اوضح هذهِ الحقيقة بصريح العبارة قبل ان يوجد لمَرَكَ وجراسيموس ودَروِن بقرون . ومن يتأمل في كلام عبدالله البكري صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار يتعجب كيف حوَّم ببصيرتهِ على الآراء الشائعة الآن بعد ان كشف العلامة بستور بتجاربهِ البديعة مبادئَ الفساد والتعفن وأوضح حقيقة تولد الجراثيم الوبيلة ومنفعة التلقيح . قال في الكتاب الثاني عشر من مؤلفهِ المشار اليهِ في الكلام على الهوام والحشرات ما نصهُ " اذا أوقدتَ ناراً في وسط غيضةٍ لترى ما يغشى النار من الحشرات بدت لك صورٌ عجيبة واشكالٌ غريبة . على ان الخلق الذي يغشى النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض والجبال والسهول والبراري فان في كل بقعةٍ من هذهِ البقاع اشكالاً من المخلوقات مخالفةً لما في البقعة الاخرى

(1) V. notice historique sur l'origine des espèces par Charles Darwin

وقد خُلقت هذهِ الحشرات من المواد الفاسدة والعفونات الكائنة ليصفو الجوُّ منها ولا يعرض لهُ الفساد الذي هو سبب الوبآء وهلاك الحيوان والنبات . والذي يحقق ذلك اننا نرى الذباب والديدان في دكان القصَّاب والدباس ولا نراها في دكان البزاز والحداد فهي تمتص العفونات وتتغذى بها فيصفو الهوآء منها ويسلم من الوبآء (كذا) وجعل صغارها مأكولاً لكبارها والاَّ ملأت وجه الارض منها " الى ان قال " واعجب ما في هذا النوع ان كلَّ ما جُعل سبباً لضرر حيوانٍ جُعل لحمهُ دفعاً لذلك الضرر فان الاطبآء الاقدمين وجدوا في لحم الحية قوةً تقاوم السموم فأدخلو لحمها في الترياق . والتجربة دلت على ان من لذعتهُ العقرب يقتلها ويطلي موضع اللدغ برطوبة بدنها فان الالم يسكن في الحال " والكتاب المذكور يشتمل على كثيرٍ من صور النباتات بالوانها الطبيعية فهو من الآثار القديمة الباقية الى الآن للدلالة على فضل العرب ويظهر ان مؤلفهُ متأخر عن ابن البيطار العشاب لانهُ يعتمد عليهِ كثيرًا في النقل اما سائر اجزآء الكتاب فلم اهتدِ حتى الآن اليها

ومن فلاسفة العرب في الاندلس ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي سنة ١٠١٣ وهو اول طبيب طُبعت مؤلفاتهُ

مترجمةً الى اللاتينية في مدينة البندقية . ألف كتاب التصريف في ٣٠ مجلداً وقد مدح العلامة هلّر مؤلفهُ المذكور ولا سيما الكتاب الاول منه في المادة الطبية لانهُ لم يتحدَّ غيرهُ بالنقل بل اعتمد على نفسهِ في تحرّي الحقائق ولهُ كتاب القياس والتجربة وهذا الكتاب من ابدع كتب الطب القديم يشتمل القسم الذي يبحث فيه عن الجراحة على صور الكسور والخلع والآلات الجراحية

ومنهم ابن وافد ابو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد اللخمي من طُليطلة برع في الطب والفلسفة وكان مولعاً بدرس مصنفات ارسطو وجالينوس وكان يعوّل في العلاج على الادوية البسيطة ولهُ مؤلفات كثيرة ضمنها مقالات ديسقوريدس وجالينوس توفي سنة ١٠٧٤

وكان في الاندلس ابناء زُهر بمثابة ابناء بختيشوع وحنين وماسويهِ في بغداد واشهرهم ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي صاحب كتاب التيسير اخذ الطب عن ابيهِ وجدهِ وكان يتحدَّى جالينوس الاَّ انهُ كثيراً ما عقَّب عليه وردَّ على ما تراءى لهُ من مظانّ الشبهات فيهِ . كان حاذقاً محققاً مدققاً ذا منزلة رفيعة ويظهر انهُ لم يَطبَّبْ كسائر اطباء زمانه ولكنهُ كان يُستشار في الامور المهمة . ومن حكاياتهم

عنهُ ان المهدي لما اخذ بلادا لمغرب قرَّبهُ وأكرمهُ واتحفهُ بالعطايا ومما عمل لهُ انهُ اخذ ادويةً مسهلة نقعها وسقى بمائها كرمةً فحملت عنباً فاحمى الخليفة واعطاهُ عنقوداً منها فاكل منهـا عشر حبات فقال لهُ يكفيك تقوم عشرة مجالس لانك اكلت عشر حبات فكان كما قال [1] فتزايدت قيمتهُ عندهُ وعطاياهُ * قال الشيرازي وفي زمانهِ وصل القانون الى المغرب فلم يعجبهُ وصار يقطعهُ ويصرُّ بهِ الادوية . وهو استاذ ابن رشد توفي وعمرهُ ٩٢ سنة في اشبيليه سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٦٢ م

وكان ابن رشد يؤثر الفلسفة على الطب وهو الامام ابو الوليد محمد بن محمد القرطبي كان ابوهُ قاضي قضاة الاندلس فرباهُ على حب الفضيلة والعلم فبرع في الفقه وفي الحديث وفي الجدل وفي معرفة مذاهب المتقدمين ودرس الرياضات والطبيعيات والطب ثم صار مدرساً للفلسفة والفقة والطب في مدرسة قرطبة وكان أبيَّ النفس عيوفاً للمحاباة عرّض مرّةً بالخليفة فحرمهُ من مخالطة الناس الاَّ اليهود ورُمي بالزندقة فحجزت املاكهُ وهاج الشعب عليهِ فهرب الى فاس ولكنهُ ضُبط فيها واُكرهَ على

(١) خاتمه شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازي
Sédillot; histoire générale des arabes

الوقوف صاغراً بباب الجامع ليبصق المارون عليهِ ثم عاد الى قرطبة يجرُّ ذيول الشقاءِ وبعد ذلك دعاهُ يعقوب المنصور سلطان مراكش فحسنت حالهُ واستردَّ ما فقدهُ [1] وتوفي سنة ٥٩٩ هـ ـ ١١٩٨ م . الف كتباً كثيرة منها كتاب الكليات في عدة مجلدات شرح بهِ فلسفة ارسطو ولهُ شرح ارجوزة ابن سينا

وآخر جهابذة الطب في الاندلس الامام المدقق ابو محمد عبدالله بن صالح المعروف بابن البيطار وُلد في مالقة في نهاية القرن الثاني عشر وسافر مشارق الارض ومغاربها ليرى النبات في موضعهِ ويتحقق صفاتهِ بالعيان منكّباً عن خطة التحدي والتقليد ومن طالع كتابهُ الجامع لمفردات الادوية والاغذية تبين ما كان عليهِ من ذكاءِ النفس وكثرة الحفظ وصحة النقد وسعة المعرفة لم يترك هفوةً اطلع عليها في كتب المتقدمين الاَّ نبَّهَ عليها توفي في دمشق سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٨٤ م

هؤلاءِ هم اشهر حكماءِ العرب الذين اهتدى الاوربيون بهداهم واقتفوا آثارهم ايام كان الجهل ضارباً اطنابهُ بينهم وكانوا

(1) V. les médecins arabes; Revue scientifique tome XXXII de la collection P. 653

على حالة من الهمجية اقلّ ما قيل فيها انهم لم يكونوا يعرفون للقميص معنى حتى استعاروا اسمهُ من العربية كما استعرنا منهم الآن اكثر اسماء ملابسنا كالبنطلون والبلطو فانقلبت الآية وكذلك الدهر بالناس قلّب . ولا شك ان علة هذا الانقلاب غلبةُ الجهل وترك العلم على ما يشهد العيان وتثبت الآثار . فلم يكن يوجد منهم من يعرف القرآءة والكتابة الا بعض الرهبان وكان التشيع الديني يمزّقهم كل ممزّق وكانت الخرافات والاضاليل والعبودية تعمي بصائرهم وكان الطبيب عندهم ساحراً دجالاً بيطاراً والصيدليّ حائكاً عطاراً والجراح حلاقاً مهذاراً . واول شعاع من نور العلم ضآءت به آفاقهم انما انعكس عليهم من العرب مجاوريهم في الاندلس او مخالطيهم في حروبهم معهم ولا سيما الحروب الصليبية فتعلموا فلسفة ارسطو من مؤلفات ابن رشد وهندسة اقليدس من ترجمات الحجاج بن مطر واسحق بن حنين وثابت بن قرة والطب البقراطيّ من قانون ابن سينا ومصنفات الرازي والكيمياء من جابر بن حيان والنبات من ابن البيطار والرياضيات والطبيعيات والتنجيم من ترجمه المجسطى ومصنفات العرب الكثيرة [1] التي لا يسعنا بيانها الآن . وكانت مدارس

(1) V. l'histoire générale des arabes par Sédillot

الاندلس ولا سيما قرطبة محط رحالهم في طلب العلم واول من علم في مدارسهم اساتذة تلقوا العلوم عن العرب كما يعلم من تاريخ مدرسة سلرنا في ايطاليا وهي اقدم مدرسة في اوروبا ولم يكن مسموحاً للنساء عندهم ان يتعلمن حتى القراءة البسيطة والكتابة وكان التعليم بوجه العموم موكولاً الى خدمة الدين وبقي كذلك في فرنسا الى بداءة القرن الماضي فلم يتقرر فيها نظام المعارف العمومية الاَّ بعد الثورة التي ثلَّ بها عرش الاستبداد وتحررت العقول من ربقة الاستعباد . وهذه لغاتهم تشهد عليهم كما يشهد التاريخ وعقلاؤهم يقرُّون بان العرب كانوا اساتذتهم فلفظة الجبر algèbre دليلٌ على انهم اخذوا هذا العلم عن العرب والكيمياء alchimie تدل ايضاً على انهم اعتمدوا على المؤلفات العربية في هذا الفن بعد ان امر الامبراطور فردريك الثاني بترجمة الكتب العربية بعد الحروب الصليبية . والصفر chiffre دليل على انهم لم يكونوا يعرفون الارقام وهم حتى الآن يسمونها بالارقام العربية وصورُها الافرنجية هي نفس الصور التي استعملها العرب قديماً واكثر الاسماء في علم الهيئة عربية كالعنكبوت alancabuth والدبران aldébaran والطير althair والغول alghol والرجل rigel والسمت semt ثم تصرفوا بلفظها فقالوا zénith والنظير nadir وما

اخذوه عنهم في الملاحة اميرال amiral والاسطول escadre
مأخوذة من الطلياني في القرن الخامس عشر وكان يلفظونها
eshiele وفي التشريح الصافن saféne وفي الكيمياء الانبيق
alambic والاكسير elixir والقلي alcali وفي المواد الطبية
الترياق thériaque والكحل [1] alcohol والشراب
sirop والجلاب julep والرب rob واللعوق looch

(١) ويكتبه المترجمون الكوءول alcool وكانوا يكتبونه الكحول Alcohol تبعا للفرنسويين قبل ان قررت جمعيه العلوم الفرنسويه حذف الحرف h من هذه اللفظه وكفى بذلك دليلا على ضياع هذه اللغة وامتهانها من ابنائها فيما حقها ان تشرف به اما اصل اللفظة فقد اجمعوا على انها الكحل بمعنى الاثمد وانما خفى عليهم توجيه معنى الاثمد لروح الخمر . قال ليتراى فى معجمه الكبير انهما يلتقيان فى معنى اللطافة والدقة واتذكر انى سمعت من الدكتور فانديك رحمه الله اذ كان يدرس الكيماء فى مدرسة بيروت الكلية روايه لو صح سندها لكانت هى الحقيقه بعينها قال « من فنون العرب فى الاندلس استقطار روح الخمر واسرافهم باستعماله شرابا وقد عرفوا الاتيمون بخاصته السامه وانه من الكحل فكانوا اذا قصدوا اغتيال احد وضعوا الاتيمون فى الشراب فاذا سئل عنه قالوا سقوه الكحل ، يكنون بذلك عن موته مسموماً ، وعليه اطلاق لفظه الكحل على المشروبات الروحيه »

والبادزهر bézoard والترهندي tamarin والسنا sénê والنفط naphte والكمون cumin والانيسون anis والكراويا carui وغير ذلك مما يطول الكلام عليه ولا غرابة في ذلك فهم انما تعلموا في مدارس العرب ونقلوا كتب العرب الى لغاتهم وطبعوها قبل ان يعتنوا بطبع غيرها من الكتب لانهم اعتمدوا عليها في التدريس والتعليم ولا يخفى ان آلة الطباعة اخترعها يوحنا غوتنبرج سنة ١٤٤٥م واول كتاب طُبع بها مترجمًا الى اللغة اللاتينية هو كتاب التصريف للامام ابي القاسم الزهراوي المتقدم ذكرهُ وذلك في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ م . ثم طُبع قانون ابن سينا سنة ١٤٧٦ م . وبعد ذلك طُبعت مؤلفات الرازي سنة ١٤٨١ م ثم كليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ ــ ١٤٨٤ م . ثم طُبع تصنيف علي بن عباس الاهوازي المعروف بالملكي سنة ١٤٩٢ م مع ان مصنف شلشيوس انما طُبع سنة ١٤٧٨ م . ومصنفات

---

(١) تنبيه ــ قد ذكرت بعض الالفاظ المنقولة عن العربيه الى الفرنسويه بقطع النظر عن كونها عربيه الاصل اومعربه ولم اتصد لبيان هذه الالفاظ فى سائر اللغات لان اللغه الفرنسويه اكثر شيوعا بيننا

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول الطب على القياس والتجربة فهو اذاً علم وعمل وعليهِ قول ابن سينا في مقدمة أرجوزتهِ المشهورة

الطبُّ حفظُ صحةٍ برُّ مَرَضْ في بَدَنٍ من سببٍ عنهُ عَرَضْ
قسمتهُ الأُولى لعلمٍ وعَملْ والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتملْ
سبعُ طبيعاتٍ من الأُمورِ وستةٌ وكلُّها ضروري
ثمَّ ثلاثٌ سُطِّرتْ في الكتُبِ من مَرَضٍ وعَرَضٍ وسَببِ

وبناءً عليهِ يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض واعراضها واسبابها . واما عملهُ فيراد بهِ مزاولة صناعة العلاج إما بالجراحة وإما بالدواء وتدبير الغذاء وعليهِ قول الشيخ الرئيس في ارجوزتهِ المذكورة